٢ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

سلطان باشا

هو محمد باشا بن سلطان بن احمد ، من قرية بالصعيد تسمى زاوية الأموات ، بالجانب الشرقي من النيل ، تجاه منية ابن الخصيب . ولد بها سنة ١٢٤٠ أو إحدى وأربعين . ورباه أبوه فسلمه لمعلم للقرآن بالقرية علمه القراءة والكتابة ، وحفظه ما تيسر من القرآن الشريف . ولما بلغ أشده تركه أبوه ينظر في أمور القرية المذكورة ، الى أن نقل حسن باشا الشريعي من نظارة قسم قلوصنا ، في ولاية محمد سعيد باشا على مصر ، فسأله الوالي عمن يقيمه بدله على القسم المذكور فذكر له المترجم ، وأثنى عليه ، وضمن كفايته ، فأقيم ناظراً لهذا القسم مدة ثلاث سنوات . ثم جعله سعيد باشا وكيلاً لمديرية بني سويف ، وبعد سنتين جعله مديراً لها ، فبقي فيها الى أن توفي سعيد باشا ، وتولى ابن أخيه اسماعيل باشا ، فنقل المترجم مديراً للغربية فمكث بها نحو سنة ، ثم أمر بنقله مديراً لأسيوط فأقام بها نحو سنتين ، ثم جعله وكيلا لادارة تفتيش الوجه القبلي ثم أحال عليه النظر في ضياعه التي بالصعيد المسماة بالجفالك ، ثم جعله مفتشاً على مديريات الوجه القبلي ، وانحرف عنه في أثناء ذلك عكوش باشا ، وشاهين باشا ، وعظمت الوحشة بينه وبينهما فوجد حاسدوه فرصة للايقاع به ، نظراً لمكانة الرجلين عند الخديو فسعوا به عنده ، ووشوا له بأمور عنه كان يكرهها .

صداقته لتوفيق باشا

فغضب عليه وأمر بسفره الى السودان رئيساً لمجلس الخرطوم وهو في الحقيقة نفي على جاري عادة ولاة مصر ، اذا غضبوا على أحد نفوه الى السودان في صورة تنصيبه بأحد المناصب . فصدع المترجم بالأمر وسافر ، ولكنه لما وصل بني سويف وصله أمر الخديو بالرجوع بسبب تداخل ولي العهد محمد توفيق باشا وسعيه بالشفاعة له لدى والده لأنه كان يحبه . فرجع من الطريق وقصد قريته زاوية الأموات فمكث بها عدة شهور ، ثم أذن له بالاقامة في القاهرة فأقام بها في داره المعروفة بجهة الاسماعيلية مدة الى أن جعله الخديو اسماعيل باشا مديراً للفيوم ، ولكنه عاد فألغى هذا الأمر قبل سفره . وبعد نحو سنة رجع بأمر الخديو المذكور الى بعض المناصب التي كان بها بالوجه القبلي . وخُلع الخديو وتولى بعده ولده محمد توفيق باشا ، وقامت الثورة العرابية وطالب العرابيون الخديو باعادة مجلس النواب ، وكان أهل شأنه بعد توليته فأجابهم لذلك وألف مجلس النواب ، فجعل المترجم رئيساً له لما يعلمه من إخلاصه ومحبته له ؛ ثم وقعت بينه وبين العرابيين وأمراء الجند منازعات وخلاف في بعض الأمور ظهر لهم منها ميله للخديو فأبغضوه ونووا له السوء .

عرابي يهدده بالقتل

وقام عليه مرة عرابي وبعض الضباط في داره ، فهددوه بالقتل ، وجردوا سيوفهم في وجهه ، وكاد يقع في أيديهم ، لولا انهم تراجعوا عنه من تلقاء أنفسهم ، واشتد قلقه بعد هذه الحادثة ورأى حياته معهم على خطر ، فاحتاط لنفسه ، وصار اذا جلس بداره وضع بجانبه مسدساً محشواً ليدافع به عن نفسه اذا فوجئ ، ولم يغن تهديدهم له شيئاً ، ولم يجد في تحويله عن الخديو ، بل استمر على اخلاصه ، والقيام بمساعدته ، والأخذ بناصره . ثم اشتدت الفتنة ، وسافر الخديو الى الاسكندرية ، فصحبه المترجم ملازماً خدمته ، واستدعاه هناك درويش باشا مندوب السلطان في شعبان سنة ١٢٩٩ ، وأنبأه بانعام السلطان عليه برتبة روملي بيكلربكي ، وأعطاه تقليدها بيده .

مع الانجليز

ثم قامت الحرب على ساق ، بين الانكليز والعرابيين ، فندبه الخديو لمساعدة الانكليز ، وارشادهم الى الطرق ، فبذل ما في وسعه وكاتب بعض مشايخ العرب والعمد ، ومن لهم شأن ، يمنيهم بالخلع والرتب والأوسمة ، على أن يبذلوا الطاعة للخديو والانكليز وينبذوا طاعة العرابيين ، فنجح في مسعاه ، ووافقه الكثيرون ، فانضموا للخديو وشيعته سراً ، ووقع الفشل في زمرة العرابيين ،

وانهزمت جموعهم ، واستولى الانكليز على مصر ودخلوا القاهرة يوم الخميس مستهل ذى القعدة سنة ١٢٩٩ ، فأرسله الخديو اليها نائباً عنه ، وأطلق يده فى التصرف فى الأعمال ، فوصلها فى ٢ ذى القعدة ليلاً من طريق بور سعيد ، واستبد بالأمور أربعة أيام حتى حضر النظار اليها ، وباشروا أعمالهم . وقد تاه المترجم وتجبر فى هذه الأيام الأربعة ، وأمر بالقبض على كثيرين ممن كان له بغية فى القبض عليهم وإذلالهم ، ومنهم حسين باشا الشريعى ، فانه أوغر صدر الخديو عليه ، وأشار بسجنه ، ونسى له سابق فضله عليه ، وذلك لخلف وقع بينهما إبان قيام الفتنة .

بعد الثورة العرابية

ولما حضر الخديو من الاسكندرية عقب إطفاء الثورة وذهب الناس لتهنئته بقصر الجزيرة يوم الثلاثاء ١٣ ذى القعدة المذكور أثنى أمامهم على المترجم ثناء كثيراً وقال هذا هو الرجل الذى أخلص لنا فى السر والعلانية ، وأنعم عليه بالوسام المجيدى الأول ، وأمر باحضاره فوضعه على صدره بيده أمامهم ، ثم سعى له عند النظار للانعام عليه بعشرة آلاف دينار مصرى مكافأة على خدمته ومسعاه ، فأعطيت له من ديوان المالية . وكافأه الانجليز بوسام (سان جورج ، وسان ميشيل) من الدرجة الأولى لمساعدته لجندهم إبان الحرب ، وذهب به السير مالت قنصلهم الكبير الى داره وسلمه له يوم الثلاثاء ١٧ محرم سنة ١٣٠٠ هـ ، وقال له إن من شروط هذا الوسام أن تضعه مولاتنا الملكة بيدها على صدر من تنعم عليه به ، وقد أتيت اليكم نائباً عنها فى وضعه على صدركم جزاء إخلاصكم وولائكم لجلالتها ولحضرة الخديو . ثم فى جمادى الأولى من هذه السنة أنعموا عليه أيضاً بالمدالية الانجليزية المضروبة بخصوص الحرب العرابية .

وبقى المترجم بعد ذلك فى داره بالقاهرة بلا عمل ، ملتبساً بلقب رئيس مجلس النواب ، ثم انتدب للاشراف على شواطئ النيل وجروفه بالوجه القبلى لما زاد فى الفيضان ، فصدع بالأمر على كره منه ، ورأى ذلك حطاً من مقامه ، واستقل العشرة الآلاف والوسامين على ما قام به للخديو والانكليز ، وانعكست آماله التى كانت ترمى الى تنصيبه فى منصب كبير ، وفترت نفسه ، وكثرت همومه ، وانحرف عن الانكليز ، وطفق يذمهم بعد أن كان لهجاً بمدحهم والثناء عليهم فى كل مجلس يجلسه ، واعتزل الناس فجعل اقامته بالصعيد ، ولما ذهب اللورد دوفرين الى تلك الجهة زاره المترجم فلم يلق منه ما كان يؤمله من حسن المقابلة ، وسأله فى عرض حديثه عن حضور أخوى الخديو حسين باشا وحسن باشا من أوربة ، فقال له نعم حضرا ، فقال ولم حضرا ، فأعرض عنه اللورد ولم يجبه ، ونقل حديثه مع غيره ، فقام المترجم من المجلس كاظماً غيظه ، وزاد فى ذمه فى الانكليز ، وأثرت هذه الأحوال فيه فاعتلت صحته .

رئاسة مجلس الشورى

ثم صدر الأمر العالى يوم الأربعاء ٢١ محرم سنة ١٣٠١ بجعله رئيساً لمجلس شورى القوانين الذى ألف حينذاك ، بدلاً من مجلس النواب ، حسب اشارة اللورد دوفرين فى تقريره عن مصر ، فتولى هذا المنصب وهو عليل ، ثم ازدادت علته ، فأشار عليه الأطباء بالسفر الى أوربة للمعالجة ، حيث لم تفده معالجة أطباء مصر ، فسافر الى بلاد النمسة ، ونزل بنزل فى مدينة غراتس ، فوافاه أجله هناك صباح يوم الاثنين ٢٦ شوال سنة ١٣٠١ .

وفاته

ونعى الى الخديو فى ذلك اليوم بالبرق ، نعاه له قلينى باشا فهمى فأسف عليه أسفاً شديداً وجزع ، وأمر بنقل جثته الى القطر المصرى لتدفن فيه ، وأقام له مأتماً من الخاصة الخديوية ، وناط بمحافظ القاهرة القيام به بالنيابة عنه . ووصلت جثة المترجم الى الاسكندرية يوم الاربعاء ٦ ذى القعدة من السنة المذكورة فأمر الخديو بتشييعها تشييعاً كبيراً بالاسكندرية ، فسارت فى طليعة الجنازة كتيبة من فرسان الشرطة ، ثم كتيبة من الجند الرجالة منكسى الأسلحة ، يتلوهم قرّاء الأحزاب والبردة ، ثم جميع كبار الموظفين بالاسكندرية ، فتلاميذ المدارس ، فجم غفير من الأعيان حتى أوصلوا النعش الى السكة الحديد ، فجعلوه فى قطار مخصوص سافر به من هناك الى منية ابن الخصيب ، ونقل منها الى الشاطئ الشرقى حيث دفن بمقبرة بلده . وخلف المترجم ثروة واسعة ، وولداً واحداً عمره نحو سنتين ، وثلاث بنات . وقد رثاه الشيخ على الليثى بقصيدة .